الوحدة الخامسة/ أثر عصر التابعين في الفقه

مصادر التشريع في عصر التابعين

تكوين المدارس الفقهية في الحجاز والعراق والفرق بينها وأسباب ظهورها وأبرز رجالها

بداية تكوين الفقه كعلم مستقل.

ويبدأ هذا العصر بمقتل علي رضي الله عنه وتنازل ابنه الحسن عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان حقناً للدماء وحفاظاً على وحدة الأمة وكيانها، وينتهي في الثلث الأول من القرن الثالث الهجري.

كان أشهر الصحابة علما في هذا العصر (صغار الصحابة وكبار التابعين) [1]

في المدينة:

من الصحابة: زيد بن ثابت، وعبدالله بن عمر، وعائشة، وأبي بن كعب

ومن التابعين فقهاء المدينة السبعة

وفي مكة:

كان أشهر الصحابة علماً في هذا العصر: عبدالله بن عباس.

ومن التابعين الذين تعلموا على يديه: مجاهد وعكرمة وعطاء وطاووس.

وفي البصرة:

من أشهر الصحابة علما في هذا العصر: أبو موسى الأشعري، وأنس بن مالك.

ومن التابعين الذين تعلموا على يديهما: الحسن البصري، ومحمد بن سيرين

وفي الكوفة

من أشهر الصحابة علماً في هذا للعصر عبدالله بن مسعود، وسعد بن أبي وقاص

ومن التابعين الذين تعلموا على يديهما: علقمة بن قيس النخعي، والأسود بن يزيد النخعي، ومسروق بن الأجدع، وعَبِيدة بن عمر السلماني، وشريح بن الحارث القاضي، والحارث الأعور.

وفي الشام:

كان من أشهر الصحابة علماً في هذا العصر: معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء

ومن التابعين الذين تعلموا على أيديهم: مكحول الدمشقي، وأبو إدريس الخولاني، وعمر بن عبدالعزيز، والأوزاعي

وفي مصر:

كان أشهر الصحابة علماً عبدالله بن عمرو بن العاص

[1] تاريخ التشريع والفقه الإسلامي، د/ أشرف ويح

ومن التابعين الذين تعلموا على يديه: يزيد بن أبي حبيب.

معالم عصر صغار الصحابة وكبار التابعين[٢]:

أولا: سلك التابعون نهج الصحابة في التعرف على الأحكام، فقد كانوا يرجعون إلى الكتاب والسنة فيما يواجههم من نوازل، فإن لم يجدوا رجعوا إلى اجتهاد الصحابة، وإن لم يجدوا اجتهدوا رأيهم مراعين في ذلك المنهج الذي دلهم عليه الكتاب والسنة، والضوابط التي راعاها الصحابة في اجتهادهم.

ثانيا: تشبعت الآراء الفقهية وكثرت الخلافات في الأصول والفروع بين المسلمين،

وذلك يرجع إلى عدة أسباب منها[٣] :

١- الإكثار من الاعتماد على الرأي .

٢- الفتن التي هبت على الدولة الإسلامية ،وفرقت المسلمين ومزقت وحدتهم وسفكت دمائهم، فقد ظهرت فرق في هذه الأثناء تبنت أحكاما تشريعية خالفوا بها الأمة كالخوارج والشيعة.

٣- تفرق السنة في أقطار الدولة الإسلامية، فكان كل بلد عنده من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم نصيب، فقد علمنا أن السنة لم تدون ولم تجمع في كتاب، وكانت موزعة في صدور الصحابة، فلما تفرق الصحابة في الآفاق أخذ أهل كل ناحية عن الصحابي الذي في قطره من علمه ،وكان أهلا للفتوى يرجعون في كل ناحية إلى ما عندهم من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، ويجتهدون في ما لا يعلمونه فيختلفون بسبب ذلك .

٤- كل بلاد فُتحت لها عادات وتقاليد مختلفة، وهذا الاختلاف يؤدي إلى اختلاف الفقهاء، لأن الفقيه يراعي أحوال بلده وظروفه مادامت غير مخالفة للشرع .

ثالثا: انتشرت ظاهرة تفقه الموالي وتعلمهم وبروزهم في العلم، حتى صار أغلب علماء المسلمين منهم، ذلك أنه بعد الفتوح الإسلامية دخل كثير من هؤلاء في الإسلام، واستفادوا من علومه ومعارفه، وأخذوا العلم عمن اتصلوا به من علماء المسلمين، حتى برزوا في العلم، وفاقوا كثيراً من العرب الأصليين[٤].

---

[٢] المدخل لدراسة الفقه الإسلامي الغامدي/ تاريخ الفقه الإسلامي (الأشقر/ ص:٨٠)، تاريخ الفقه لإسلامي، محمد السايس.

[٣] المدخل إلى الشريعة والفقه الإسلامي، د/ عمر الأشقر

[٤] تطلق كلمة الموالي على من أسلم من غير العرب كأبناء الفرس والروم وقد سمي هؤلاء بالموالي لأن من أسلم على يد رجل فهو مولاه.

وتطلق كلمة الموالي كذلك على الأرقاء سواء أكانوا أرقاء قبل الإسلام أو ضرب عليهم الرق بعد أسرهم.

وهؤلاء الموالي دخلوا في الإسلام وحسن إسلامهم.

وقد أخذ المسلمون كثيراً من أبناء الأسرى فقاموا بتربيتهم وتعليمهم القرآن الريم والسنة واللغة العربية فحفظوا وفهموا وبرعوا في هذه العلوم وأتقنوها أجادوها.

وقد ساعدهم على هذه الإجادة أنهم أصحاب حضارات قديمة، فقد كانوا ملمين بالثقافات الرومانية واليونانية والفارسية وغيرها، بل إنهم كانوا على علم بالفلسفة والمنطق والديانات، ولهم خبرة في التأليف ويتمتعون بالذكاء والقدرة على استنباط الأحكام.

ورغم التعصب للعرب الذي كان يسود الدولة الأموية فقد أقبل الناس على هؤلاء الموالي يسألونهم ويستفتونهم، ويأخذون العلم منهم معترفين بعلمهم وفضلهم.

رابعا شاعت رواية الحديث وكثرت، وتساهل المسلمون بها بعد أن كانت شبه محظورة في عهد الخلفاء الراشدين، متشدداً في روايتها وقبولها.

وما كان تشددهم هذا رفضاً سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ولا تقليلاً من شأنها، فقد استقر في أذهان الصحابة جميعاً أن السنة النبوية هي المصدر الثاني من مصادر الشريعة، لكنهم فعلوا ذلك:

- خشية الكذب أو الخطأ في بعض ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم،
- أو خشية التباسها بالقرآن، سيما في بداية عهد الخلفاء الراشدين حينما لم يكن القرآن مكتوباً في المصاحف.

يمكن أن يعود سبب شيوع رواية الحديث إلى عدة أسباب[٥]:

١-كان الصحابة يخافون على القرآن إذا اشتغل الناس بالسنة فلما استقر الأمر وأمن العلماء على القرآن زال المانع الذي يمنعهم من الإكثار من الرواية.

٢-الفتن الذي ظهرت كثير منها كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبر عنه وبينه فكان الصحابة يروون هذه الأحاديث التي تكشف الفتنة وتزيل الشبهة

٣-جدت أحداث ونوازل تستدعي بيان الحكم، وهذا البيان موجود عند حفظة الحديث.

٤-التأثم من كتمان العلم.

خامسا: ترتب على شيوع رواية الحديث وانتشارها كثرة الوضع في الحديث، وكثرة الخطأ في الرواية ممن لم يكونوا من أهل الضبط والحفظ والعدالة، واختلاق بعض الفرق الخارجة عن الإسلام نصوصاً يزعمون أنها أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، يروجون بها لبدعهم تارة، ويطعنون بها في دين المسلمين تارة أخرى.

تعمد الكذب حرام بإجماع المسلمين لا فرق في تحريم الكذب على النبي بين ما كان في الأحكام وما كان في غير ذلك كالترغيب والترهيب والمواعظ وغير ذلك، فكلٌ حرام ومن أكبر الكبائر ودليل ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)[٦].

وقد ترتب على مساهمة الموالي واشتراكهم مع غيرهم من الفقهاء العرب الموجودين معهم في بلد واحد في تدريس الفقه ورواية الحديث أن زادت الثروة الفقهية واتسعت دائرته نظراً لثقافتهم الماضية وتوسعهم في الفقه الافتراضي واجتهادهم في وضع الحلول.

ولا يوجد مصر من الأمصار الإسلامية إلا وفيها عدد من علماء الموالي:

في المدينة:

نافع مولى عبدالله بن عمر، وكان أشهر علماء المدينة في زمانه، وكان يقوم برواية أحاديث ابن عمر لأنه خادمه والملازم له في إقامته وسفره

ربيعة الرأي مولى ميمونة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم

في مكة: عكرمة مولى عبدالله بن عباس، عطاء بن أبي رباح مولى بني فهر، مجاهد بن جبر مولى بني مخزوم، أبو الزبير محمد مولى حكيم بن حزام

في الشام: مكحول بن عبدالله شيخ الأوزاعي فقيه الشام

في البصرة: محمد بن سيرين مولى أنس بن مالك، الحسن البصري مولى زيد بن قابت

في مصر: يزيد بن أبي حبيب مولى الأزد وقد تفقه على يديه الفقيه المصري الشهير الليث بن سعد

[٥] تاريخ الفقه الإسلامي، الأشقر ص ٨٨)

[٦] تاريخ التشريع والفقه الإسلامي، د/ أشرف ويح

أسباب وضع الحديث:

أولاً: العداوة الدينية

حاول بعض أعداء الإسلام ممن غلبوا على أمرهم من اليهود والمجوس فتنة المسلمين وإفساد أفكارهم، ونظروا إلى القرآن فوجدوا باب الدخول إليه مغلق لجمعه وكتابته وحفظه

وبعد عجزهم عن الوصول لهدفهم السيء في القرآن نظروا إلى السنة فوجدوا أنها غير محصورة وغير مدونة، وكان مدخلهم إلى الحديث من جهة الخلاف بين المسلمين حيث انضم هؤلاء الأعداء للفرق المتنازعة كالشيعة والخوارج، وقاموا بوضع أحاديث يقرون فيها تحريم الحلال والحرام، وينسبون ذلك إلى النبي لإدخال ما ليس في السنة منها،

ثانياً: التعصب المذهبي:

لقد أدى الصراع بين الفرق الإسلامية كالخوارج وغلاة الشيعة إلى محاولة كل فرقة الانتصار لرأيها، وتأييده بأحاديث يضعونها، ويؤلفون لها سنداً من رجالهم لتأييد مذهبهم السياسي الذي يسيرون عليه

ثالثاً: الترغيب والترهيب

لقد تساهل البعض في باب الفضائل والترغيب والترهيب من المعاصي بحسن نية إلى القيام بوضع الأحاديث اعتقاداً منهم أنه لا بأس في ذلك، ما دام أنه ليس فيه تقرير لحكم شرعي يتعلق بحل أو حرمة.

رابعاً: السير في ركب السياسة

مقاومة العلماء للوضاعين:

لقد روعت هذه الفوضى في الحديث عن رسول الله جماعة من العلماء المخلصين الصادقين فنهضوا للدفاع عن دينهم ومقاومة الوضاعين وتعقبهم والتنقيب عن تلك الأحاديث الزائفة

فقاموا برسم قواعد للنقد، ووضعوا علم الجرح والتعديل، الذي عن طريقه يمكن للمسلمين معرفة الحديث الصحيح من الضعيف أو الموضوع، وبذلك نجح علماء المسلمين في إحباط هذه الحركة والقضاء على أهدافها السيئة وبهذا سلمت من كل دخيل

غير أن هذه الحركة وإن لم تحقق أهدافها السيئة إلا أنها عرقلت مسيرة الفقه في هذا العصر فبعد أن كانت مهمة الفقيه في عصر الصحابة تنحصر في استخلاص الأحكام بعد سماعها أصبح في هذا العصر مطالباً بالتحقق من صحة الحديث الذي يأخذ به ثم يقوم باستنباط الحكم بعد ذلك.

سادسا: أصبح الفقه في هذا العصر علماً قائماً بذاته متميزاً عن غيره من العلوم، يبحث في الأحكام الشرعية، وبرز في هذا العصر منهجان للعلماء في الفقه والاستنباط، كانا بمثابة المدرستين المتقابلتين في المنهج، ولا يقصد بالمدارس الفقهية بناء يتدارس به ولكن طريقة ينتهجها الفقيه، فيأخذها عنه غيره ويتابعه عليها وبذلك تصبح تياراً ومسلكاً يعرفون بها دون غيرهم . هما:

	مدرسة أهل الحديث	مدرسة أهل الرأي
مكان ظهورها	الحجاز (مكة والمدينة) مهد الحديث	العراق وما جاورها
أسباب ظهورها	الأول: تأثّرهم بطريقة عبدالله بن عمر وزيد بن ثابت وغيرهما، في حرصهم الشديد على الأحاديث والآثار، وقلة الأخذ بالرأي. الثاني: كثرة الحديث عندهم؛ لكثرة الصحابة الذين سكنوا المدينة. الثالث: قلّة المسائل المستجدّة عندهم، بسبب يُسر الحياة في الحجاز، وبُعْدهم عن الحضارات الدَّخيلة، كحضارة الفُرس والروم، واستقرار الحياة في الحجاز على الحالة التي كانوا يعيشون عليها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين. الرابع: قِلّة وضع الأحاديث في المدينة أو انعدامه، لِبُعْدها عن موطن الفتنة التي أظهرت الفِرق الضّالة.	الأول: أنّ أهل العراق أخذوا الفقه عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وهو من أشهر الصحابة القائلين بالرأي، والذي كان متأثراً بمنهج عمر بن الخطاب في الأخذ بالرأي والبحث في علل الأحكام حين لا يوجد نص من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم. الثاني: قلّة الحديث عند العراقيّين، بسبب انتشار وضْع الأحاديث في العراق فاشترط علماؤها في قبول الحديث شروطاً لا يسلم منها إلاَّ القليل. وبيانه: أنّ العراق هو موطن الفِتن التي دبّت آخِر عهد الخلفاء الراشدين، ونشأت على أثرها الفِرَق المخالفة، كالخوارج والشِّيعة؛ فكان العراق هو موطن تلك الفِرَق. فالتعصّب المذهبيّ أدى إلى وضع الأحاديث، فوضَع الشِّيعة والخوارج وغيرهم، من الأحاديث ما يؤيّدون به مذاهبهم، هذا الوضْع جعل علماء العراق يتحفّظون في رواية الحديث، ويتشدّدون في قبوله، تحرّزاً من الاستدلال بالأحاديث الموضوعة أو الضعيفة؛ فلذلك كانت الأحاديث عندهم قليلة، ولم يجدوا بُدّاً مِن النّظر والاجتهاد، واستعمال الرأي والقياس، للتّعرُّف على حُكم الشريعة فيما يستجدّ مِن المسائل. الثالث: كثرة المسائل عند العراقيّين.

		وذلك لأنها بلاد فُتحت في عهد الخلفاء الراشدين، وقد دخل أهلها في الإسلام حديثاً، وهم مُتَّصلون اتّصالاً وثيقاً بالفُرْس، ولهم من العادات ما ليس عند العرب؛ فكثر السؤال عن حُكم الإسلام في تلك العادات والمعاملات
معالمها	١-عنايتهم بتحصيل الأحاديث وجمع الأخبار، وآثار فقهاء الصحابة والتابعين. يقول الشهرستاني: " وإنما سموا بأهل الحديث؛ لأن عنايتهم بتحصيل الأحاديث ونقل الأخبار وبناء الأحكام على النصوص، ولا يرجعون إلى القياس الجلي أو الخفي ما وجدوا خبراً أو أثرا". ٢-كثْرة روايتهم للحديث، واعتدادهم به، ووقوفهم عنده. ٣-أن لهم فضلا لسبقهم في تدوين السنة وتخليصها مما شابها، ووضعوا القواعد والضوابط التي يحكم بها على عدالة الرجال وبذلك دوّن مصطلح علم الحديث والجرح والتعديل. ٤-قلة الأخذ بالرأي، فقد كانوا يكرهون الخوض بالرأي، ويهابون الفتيا والاستنباط إلا للضرورة.	١-قلة روايتهم للحديث، وذلك لتشددهم في الرواية خوفاً من دخول الأحاديث المكذوبة والموضوعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يكثر في العراق الزنادقة والذين يدسون على الإسلام ويحقدون عليه، ثم إن الأحاديث في ذلك العصر لم تكن قد جمعت ودونت ٢-استعمال القياس والرأي والغوص في فهم دلالات النصوص. ٣-تفريع المسائل **وافتراض الوقائع قبل وقوعها والبحث عن أحكامها** (الفقه الافتراضي)؛ بسبب كثرة ما يَعرض لهم مِن حوادث، حتى إنهم صاروا يضعون الاحتمالات والافتراضات لمسائل لمْ تقَعْ، فيُعْطونها حُكْماً فيما لو وقعت، فكانوا يُكثرون مِن قولهم: أرأيْتَ لو كان كذا وكذا؟ ويُعطون تلك المسألة حُكماً، ويُفرّعون على ذلك فروعاً كثيرة، وبذلك ظهر الفقه الفرضي الذي قد يقع في المستقبل
الصحابة	زيد بن ثابت/ عبدالله بن عمر/ عبدالله بن عباس/ عائشة	عمر بن الخطاب/ علي بن أبي طالب/ عبدالله بن مسعود
التابعين	الفقهاء السبعة (سعيد بن المسيب، عروة بن الزبير، أبوبكر بن عبدالرحمن، عبيدالله بن عبدالله، القاسم بن محمد ،خارجة بن زيد بن ثابت، سليمان بن يسار)، وجمعهم الناظم بقوله : إذا قيل من في العلم سبعة أبحر روايتهم ليست عن العلم خارجه	علقمة بن قيس بن يزيد النخعي الأسود بن يزيد النخعي مسروق بن الأجدع الهمداني عبيدة بن عمرو الأسلمي شريح بن الحارث القاضي الحارث الأعور

	فقل هم عبيدالله عروة قاسم سعيد أبوبكر سليمان خارجه	إبراهيم النخعي عامر بن شراحيل الشعبي سعيد بن جبير
أسباب هذا الاتجاه	١-كثرة المروي من الأحاديث والآثار ٢-تأثرهم بطريقة شيوخهم ٣-قلة الحوادث التي تحتاج إلى حكم شرعي	١-قلة المروي من الأحاديث والآثار ٢-تأثرهم بطريقة شيوخهم ٣-كثرة الحوادث التي تحتاج إلى حكم شرعي
انتهت رئاسة هذا المنهج وزعامته إلى	مالك بن أنس ثم الشافعي ثم الإمام أحمد	الإمام أبو حنيفة، حيث درس في هذه المدرسة وتعلم فيها إذ هو تلميذ لحماد بن أبي سليمان الذي تتلمذ على ابن مسعود،
الموزانة بين المدرستين كان لمدرستي الحديث والرأي أثر كبير في نهضة الفقه الإسلامي ورقيه	اعتنت هذه المدرسة بالنصوص عناية كبيرة، وشغلت بغربلة الأحاديث والتعرف على الصحيح والضعيف واجتهدت في فقه النصوص واستنباط الأحكام منها، وتطبيق هذه النصوص على الوقائع وأحسنت فيما أحسن إليه أهل الرأي إذ لم يقفوا عند ظاهر النص فنظروا في منطوق النص ومفهومه زلم يهملوا علل الأحكام ولكنهم لم يتعدوا النصوص إلى الرأي إلا عند الاضطرار حيث لا يجدون نصاً بعد الطلب والتحري	غاصوا في أعماق النص واستخلصوا علل الأحكام ووسعوا دلالة النص فقاسوا النظير على النظير والشبيه على الشبيه
تنبيه	وجد في الحجاز من يميل إلى الرأي ويتوسع فيه كربيعة بن عبدالرحمن شيخ الإمام مالك الذي كان يسمى ربيعة الرأي من كثرة استعماله للرأي	وجد من العراقيين من يكره الرأي وينبذه ويأخذ طريقة أهل الحديث كعامر بن شرحبيل الشعبي